

شبهات مخالفة القواعد النحوية والصرفية في القرآن الكريم لدى المستشرقين والرد عليها

Suspicious of violating the grammatical and morphological rules in the Holy Qur'an among orientalists and responding to them

نشوان عبده خالد²

Nashwan Abdo Khaled

بدر بن خليفة بن سعيد الرواحي¹

Badar Khalifa Said AlRawahi

الملخص

تناولت الدراسة الرد على الشبهات التي أوردها المستشرقون التي تتعلق بمخالفة القواعد النحوية والصرفية في القرآن الكريم، فقد جاء المستشرقون ببعض الشبهات حول صحة اللغة القرآنية سواء من حيث القواعد النحوية أو الصرفية، وأثرها البلاغي في بعض آيات القرآن الكريم. وقد ذكرت الدراسة بعض النماذج من تلك الشبهات من خلال مبحثين تناول المبحث الأول شبهة مخالفة القواعد النحوية جاء به الشبهة التي أوردها المستشرقون حول جمع (اقتتلوا) [الحجرات: 9] والشبهة الثانية الفصل بين المضاف والمضاف إليه في في قراءة ابن عامر في [الأنعام: 137] حيث قرأ (شُرَكَائُهُمْ) (شركائهم). بينما تناول المبحث الثاني شبهة مخالفة القرآن الكريم للقواعد الصرفية في قوله تعالى [البقرة: 177] مدعياً أن الأولى قراءة (البر) — (البر) معتمداً على قول للمبرد أن اللفظ الأخير أولى، وكذلك انتقد المستشرقون فعل الأمر (احكم) في قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ معتمداً على

¹ طالب ماجستير في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.
(balrawahi79@gmail.com)

² أستاذ مساعد في قسم دراسات القرآن والسنة، كلية عبد الحميد أبو سليمان لمعارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.
(nashwan@iium.edu.my)

قراءة غير مقبولة بقراءة الفعل على صيغة أفعل التفضيل. وقد تم الرد من خلال الدراسة على تلك الشبهات وهي ردود تصلح لغيرها من الردود على كافة الشبهات المتعلقة بصحة اللغة القرآنية، وقد أظهرت الدراسة بعض النتائج أهمها: أن الجمع في فعل (اقتتلوا) على معنى أن الطائفة جماعة فالخطاب للجماعة وليس للمثنى. كذلك لا يوجد خطأ في الفصل بين المضاف والمضاف إليه، إذا الكلام كان واضحاً والمتكلم يتسم بالفصاحة.

الكلمات المفتاحية: شبهات - خطأ لغوي - القرآن الكريم - المستشرقون.

Abstract

The study investigated how orientalists responded to allegations and suspicions that the Holy Qur'an violated grammatical and morphological rules. Orientalists began to have doubts regarding the Qur'anic language's authenticity, both in terms of grammatical and morphological standards, as well as its rhetorical impact on some verses of the Holy Qur'an. The study mentioned some examples of these suspicions through two topics, the first topic dealt with the suspicion of violating the grammatical rules, brought by the suspicion reported by orientalists about the plural (iqtataloo "اقتتلوا" (fought)) [Al-Hujurat: 9] and the second suspicion is the separation of the genitive and the added in the recitation of Ibn Amer in Surat [Al-An'am: 137] as he recited (shurakaohum "شُرَكَاءُهُمْ" partners) (shrkaehm "شركائهم" (While the second topic dealt with the suspicion of the Holy Qur'an's violation of the morphological rules in the Almighty's saying in [Al-Baqarah: 177], claiming that the right is to recite Al-Birr "البِرّ" Al-Barr "البَرّ" depending on a statement by Al-Mubarrad that the last word is the right one. Also, the orientalists criticize the verb "ohkum" "احكم" in Almighty's saying "O my Lord! judge Thou in truth!" based on an unacceptable recitation by reciting the verb in the form of the elative "Afa'al". These suspicions were conveyed through the study, and the results are suitable for responding to all suspicions of the Quranic language's authenticity. The study concluded many results including: The plural in the verb (iqtataloo "اقتتلوا" (fought)) because the addressee is a group as the speech is for the group and not for the Muthanna (dual). There is a mistake in separating the genitive and the added if the speech was clear and the speaker was eloquent.

Keywords: Suspensions, Linguistic Mistake, Holy Qur'an, Orientalists.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه ومن واله وبعد

كان العرب وقت نزول القرآن الكريم أهل لغة فصحاء بلغاء لا يمكن أن يفوتهم شاردة ولا واردة لا من حيث صحة اللغة أو بلاغتها، وهي لديهم فطرة وطبع طبعوا عليه، "فقد كان لسان العرب جاهليتهم يمثل حالتهم الفطرية أصدق تمثيل بما له من ثروة متسعة من الألفاظ الدالة على حياة البداوة، وحدود مرافقها المادية، وبما به من فقر إلى أوضاع تعبر عن الشئون الحضارية المتنوعة، وفوارق الحالات النفسية الدقيقة، ومختلف العلوم والآداب والفنون"³. يقول ويل وإيريل ديورانت أن: "العرب كانوا يفخرون بقدّم لغتهم وكمالها، يولعون بتزديد مقاطعها العذبة في خطبهم الرنانة وشعرهم الجدل ونثرهم الرصين، يأخذ بلبهم شعر الشعراء الذين كانوا يعيدون على أسماعهم في القرى والدن، وفي مخيمات الصحراء أو الأسواق، مغامرات أبطالهم وقبائلهم أو ملوكهم في الحب أو الحرب في قصائد طوال ن الشعر الموزون المقفى، وكان الشاعر العربي مؤرخ العرب، وجامع أنسابهم وهجاءهم والمتغني بفضائلهم وناقل أخبارهم وملهمهم وداعيتهم إلى القتال، وإذا نال الشاعر جائزة في إحدى المباريات الشعرية الكثيرة التي كانت تعقد من آن إلى آن كانت قبيلته كلها تعد ذلك شرفاً لها تبتهج له أعظم ابتهاج، وكانت أهم هذه المباريات كلها تعقد كل عام في سوق عكاظ، حيث كانت تتنافس القبائل في كل يوم تقريباً مدى شهر كامل على لسان شعرائها، ولم يكن في السوق محكمون غير الجماهير المنصتة التي تبدي استحسانها لما تسمع أو احتقارها له، وكانت أحسن القصائد التي تقال في هذه السوق تكتب بحروف جميلة براقة فسميت من أجل ذلك بالمذهبات، وكان يحتفظ بها في خزائن الأمراء والملوك تراثاً خالداً قيماً، وكان العرب يسمون هذه القصائد أيضاً بالمعلقات لأن الفائزة منها — كم تقول القصص المتواترة — قد كتبت على الحرير المصري بأحرف من الذهب وعلقت على جدران

³ بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، 2014م)، ص28.

الكعبة في مكة"⁴. كل هذا يوضح مكانة اللغة العربية لدى العرب، فقد كانت اللغة سبباً للشرف وتمكن الرجل من اللغة ترفع من شأنه، ولحنه في القول يحط من قدره في أعين الناس. فاللغة العربية هي لغة البيان والفصاحة، وكما كانت لها مكانة في الجاهلية فكذلك كانت في الإسلام، ويكفي أنها لغة القرآن الكريم، يقول ابن زكريا: "وقد قال بعض علمائنا حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقدير والتأخير، وغيرها من سنن العرب في القرآن فقال: ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله عز وجل بالعربية لأن العجم لا تتسع في المجاز اتساع العرب، ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله جل ثناؤه: ﴿وَأَمَّا خَوَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 59]، لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ المؤدية عن المعنى الذي أودعته حتى تبسط مجموعها وتصل مقطوعها وتظهر مستورها فتقول "إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانة ونقضا فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطته لهم وآذنهم بالحرب لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء"⁵. ثم جاء المستشرقون وحاولوا إخراج أخطاء نحوية في القرآن الكريم، وكأنهم أقدر من أصحاب اللغة نفسها على اكتشاف تلك الأخطاء، فلو كان هناك خطأ لغوي واحد في القرآن الكريم لشنع عليه العرب الذين كانوا يناصبون الرسول ﷺ العداء، وكانوا يتمنون لو أنهم وجدوا أي خطأ ليصرفوا العرب الذين كانوا يقدرون قدر اللغة وقيمون الرجل بفصاحته.

الدراسات السابقة: تناولت الكثير من الدراسات القراءات القرآنية من زوايا اللغة العربية مبينة تأثير اللغة العربية في القراءات ومن تلك الدراسات ما يلي:

⁴ ويل وايريل ديورانت، قصة الحضارة، (بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، د. ط، د.ت)، المجلد الرابع، الجزء 2، ص 15.

⁵ أحمد بن فارس بن زكريا، الصحاحي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، 1997م)، ص 20.

1. **دراسة بعنوان: أثر اللغة العربية في تذوق معاني القرآن الكريم وفهمه:**⁶ هدفت الدراسة إلى بيان أثر اللغة العربية في فهم القرآن الكريم وتفسيره من خلال معرفة قواعد هذه اللغة وأصولها، المتمثلة في الألفاظ ومعانيها ودلالاتها وأحكامها النحوية ولطائفها البيانية، وهو الوقوف على حروف المعاني وما تحمله من دلالات لها أثر في تفسير الآيات وفهم مرادها، ليشكل ذلك كله منظومة ضابطة لفهم القرآن الكريم وتذوق فصاحته وبلاغته وإدراك معانيه ومرامييه. وقد قسمت الدراسة إلى أربعة مطالب، تناول المطلب الأول عناية العلماء بعامة وأهل التفسير والحديث بخاصة باللغة العربية، والمطلب الثاني مجالات العناية باللغة وأثر ذلك في تفسير القرآن، أما المطلب الثالث بعنوان احتمال الكلمة القرآنية المعاني المتعددة، بينما تناول المطلب الرابع الاختلاف في المعنى وأثره في اختلاف الأعراب. وقد أكدت الدراسة على أن العلماء والمفسرين اعتنوا باللغة العربية على اعتبار أنها لغة القرآن والوسيلة لفهم معانيه ومعرفة أحكامه وحكمه، وكذلك أكدت الدراسة على دقة ألفاظ القرآن الكريم وما تحمله من وجوه ومعاني تصلح أن تكون قواعد يحتكم إليها، وكذلك احتواء الكلمة القرآنية على لطائف بيانية وأسرار بلاغية.

2. **دراسة بعنوان أسباب وجود القراءات الشاذة:**⁷ هدفت الدراسة إلى بيان القراءات الشاذة وبيان أسبابها وجودها نظرا لكثرة القراءات الشاذة والتي تزيد عن القراءات المقبولة بمقدار غير قليل، وقد قسمت الباحث القراءات الشاذة إلى قسمين؛ القسم الأول ما صح نقله عن الأحاد وصح وجهه في العربية وخالف لفظه خط المصحف، والثاني ما نقله غير ثقة أو نقله ثقة ولا وجه له في العربية وإن وافق خط المصحف. ولذلك فقد قسمت الدراسة إلى مبحثين الأول عن القراءات المنتقلة من الصحة

⁶ فضل حسن عباس، أثر اللغة العربية في تذوق معاني القرآن الكريم وفهمه، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، (جامعة آل البيت بالمفرق).

⁷ أحمد خالد شكري، أسباب وجود القراءات الشاذة، الملتقى الدولي الثاني حول القراءات القرآنية والإعجاز، (كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الكاكي)، ص1-ص36.

إلى الشذوذ، وتشمل ثلاثة أنواع الأول الأحرف المنسوخة أو المتروكة، والثاني القراءة المخالفة لرسم المصحف، والثالث قلة الرواة للقراءة مما جعلها شاذة، أما المبحث الثاني فهو القراءات الشاذة التي لم تكن قراءة وتشمل نقل روايات تفسيرية على أنها قراءة، والثاني القراءة بالاجتهاد وما لم يرد، والثالث خطأ الرواة. وقد بينت الدراسة عدة نتائج منها أن القراءات الشاذة ليست من القرآن ولا تصح نسبتها إليه البتة، ولا تصح الصلاة بها وهي أنواع كثيرة وبعضها أشد من بعض، وقد بدأ ظهور القراءات الشاذة بعد قيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان بجمع الناس على مصحفه، وبقي الحد الفاصل بين المتواتر والشاذ غير قاطع حتى تم التمييز الدقيق بين المتواتر والشاذ في القرن التاسع على يد الإمام ابن الجوزي، وترجع أسباب وجود القراءات الشاذة إلى أحد أمرين، فإما أن تكون القراءة الشاذة مما كان يُقرأ سابقاً ثم نسخ أو ترك أو خالف الرسم أو قل رواته، وإما أنها لم تكن قراءة في الأصل وهي: ما الحق بها وأصله تفسير، وما اجتهد في قراءته وأخطأ بعض القراء.

3. دراسة بعنوان موقف المستشرقين في القراءات القرآنية:⁸ هدفت الدراسة إلى بيان الجهود الاستشراقية في الدراسات القرآنية، وبيان أبرز أعمالهم في هذا المجال، وقد اتبعت الدراسة المنهج الاستقرائي بتتبع آراء المستشرقين في مجال الدراسات القرآنية. وقد تناول المبحث الأول ترجمة القرآن شمل الترجمة الكلية والترجمة الجزئية للقرآن الكريم، وتناول المبحث الثاني موقف المستشرقين من القراءات القرآنية، والتي أظهرت أن معظم الدراسات الاستشراقية التي تناولت القراءات القرآنية ناتجة عن الهوى والرغبة في الطعن في القرآن الكريم، بينما تناول المبحث الثالث نسبة القرآن إلى النبي ﷺ والمبحث الرابع تناول دراسات عامة في القرآن الكريم تناول بعض المطاعن على القرآن الكريم. وقد أظهرت الدراسة مجموعة من النتائج أهمها أن جميع البحوث التي استعرضتها الدراسة للمستشرقين يتسم بعضها بالإيجاز والاختصار أحياناً ويتصف قسم ضئيل منها بالسطحية أو الحقد على الإسلام،

⁸ خميس سبع الدليمي، موقف المستشرقين في القراءات القرآنية، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإسلامية، (جامعة كركوك للدراسات الإسلامية بكر كوك)، ص 1-14.

وما بحث من قبل المستشرقين يمثل جزء من البحوث القرآنية لا كلها ، وأن العديد من البحوث قد أغفل إلى حد ما الجانب البلاغي والنقدي واللغوي والنظم القرآني وحسن التأليف، إن فهم القرآن بدقائقه قد يتعسر أغلب الأحيان على جملة المستشرقين ويعود سبب ذلك إلى عمق لغة القرآن وسلسلة من منابعه البلاغية مما يجعل غير العربي مهما أوتي من مقدرة يتعثر أحيانا في الفهم الأصيل للنص القرآني.

4. دراسة بعنوان وجوه الإعراب في توجيه القراءات العشر القرآنية: سورة آل عمران
أتمودجاً:⁹ هدفت الدراسة إلى بيان أوجه الإعراب في صيغ الكلام التي تقسم إلى اسم وفعل وحرف، وبيان القراءات العشر المتواترة المختلفة ومعرفتها ومعرفة قرائها ورواتهم من الجانب النظري، وبيان وجوه الإعراب في القراءات القرآنية المختلفة من خلال توجيهها من كتب التوجيه، وبيان إعراب الأسماء والأفعال والحروف في القراءات المختلفة. وقد قسمت الدراسة إلى فصلين تناول الفصل الأول القراءات القرآنية وبيان أنواعها والقراء العشرة ورواتهم، وذلك من خلال ثلاث مباحث الأول تعريف القراءات القرآنية لغة واصطلاحاً، والمبحث الثاني أنواع القراءات القرآنية وشروط صحتها، والمبحث الثالث القراء العشر ورواتهم؛ والفصل الثاني التوجيهات الإعرابية للقراءات العشر في سورة آل عمران، من خلال ثلاثة مباحث الأول إعراب الأسماء الواردة في السورة المرفوعة والمنصوبة والمجرورة، والمبحث الثاني إعراب الأفعال الواردة في السورة : المرفوعة والمنصوبة والمجزومة، والمبحث الثالث حروف المعاني الواردة في السورة أنواعها ودلالاتها. وقد أشارت الدراسة إلى أن القراءات القرآنية علم عظيم ووحى منزل من الله تعالى على الرسول p واختلافها اختلاف تنوع وليس اختلاف تناقض أو تضاد.

⁹ أنيس عبد الله محمود، وجوه الإعراب في تويه القراءات العشر القرآنية " سورة آل عمران أتمودجاً"، مجلة الجامعة العراقية (بغداد: الجامعة العراقية)

5. دراسة بعنوان اختيارات مكّي بن أبي طالب القيسي في كتابه الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها دراسة لغوية تحليلية:¹⁰ هدفت الدراسة إلى بيان مجهودات العالم الجليل مكّي بن أبي طالب القيسي المتوفى (437هـ) ومجهوداته في علم القراءات القرآنية، والعلوم اللغوية من خلال كتابه الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها مستنبطاً أهم الظواهر اللغوية من خلال دراسة اختيارات مكّي للقراءات القرآنية وترجيحاته لها. وقد قسمت الدراسة إلى فصلين تناول الفصل الأول مكّي بن أبي طالب والقراءات القرآنية، بينما تناول الفصل الثاني على اختيارات مكّي بن أبي طالب في كتابه الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها وتناول أسباب اختيارات الإمام مكّي بن أبي طالب وهي اختيارات تعود لأسباب بلاغية وأخرى لأسباب نحوية واختيارات تعود لأسباب صرفية، واختيارات تعود للاستدلال بالنظائر المشابهة واختيارات تعود للأخذ بالأصل، واختيارات تعود لأسباب لهجية، واختيارات تعود لموافقة رسم المصحف، واختيارات تعود لأسباب صوتية، واختيارات تعود للاستدلال بالأثر. وقد أكدت الدراسة على أن القراءات القرآنية وحي من الله تعالى، وهي من الأحرف السبعة التي نزل القرآن بها ولا يجوز لأحد أن يرد قراءة ثبت تواترها واشتملت على شروط الصحة، وأن القراءات القرآنية شكل من أشكال الإعجاز القرآني، حيث إن كل قراءة سدت مسد آية وتعد القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، وذلك ضرب من ضروب البلاغة، كما ذكرت أنه من أهم أسباب تعدد القراءات التيسير على الأمة ورفع الحرج عنها وبيان مقاصد الله تبارك وتعالى، وكذلك فإنه لا يعتد بإنكار أهل النحو واللغة لبعض القراءات المتواترة لمخالفتها بعض أصول النحو وأقيسة اللغة عندهم فالقراءات أصل للنحو واللغة وليس العكس.

إشكالية الدراسة: القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة الباقية أبد الدهر، نزل بلسان عربي مبين أعجز العرب عن أن يأتوا بسورة من مثله، ورغم ذلك يظهر في كتابات الطاعنين على الإسلام من

¹⁰ إسلام حسني محمد أبو صقر اختيارات مكّي بن أبي طالب القيسي في كتابه الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها دراسة لغوية تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، (غزة: كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، 2013)

المستشرقين وغيره شبهات على بلاغة اللغة القرآنية وفصاحتها مدعين أنهم اكتشفوا ما جهله مشركي العرب الذين كانوا يملكون مفاتيح اللغة العربية. ورغم تهاافت تلك الشبهات إلا أنها تجد صدى لدى البعض وتجاوب قد يصل بهم الحد إلى الخروج من الإسلام، ونرى الكثير من تلك النماذج تملأ صفحات الانترنت فنجد شباب لا يعرفون كيف يتكلمون العربية بشكل صحيح ينصبون الفاعل ويرفعون المفعول به ومع ذلك يرددون تلك الشبهات التي نقلوها عن قائلها دون علم أو دراسة، فضلا عن الكثير ممن يظهرون يدعون الثقافة ويرددون تلك الشبهات دون بحث ودراسة. ومن هنا أراد الباحث دراسة بعض الشبهات التي سيقى بهدف التشكيك في الدقة اللغوية للقرآن الكريم بهدف تشكيك المسلمين في دينهم وصرفهم عنه. ولذلك تحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

1. ما الشبهات التي أثارها المستشرقون المتعلقة بمخالفة القرآن الكريم للقواعد النحوية؟
2. ما هي الشبهات التي أثارها المستشرقون المتعلقة بمخالفة القرآن الكريم لقواعد الصرف؟
3. ما الردود على الشبهات التي أثارها المستشرقون حول مخالفة القرآن الكريم لقواعد اللغة العربية؟

منهج الدراسة: تتبع الدراسة المنهج النقدي التحليلي حيث يتناول شبهات المستشرقين حول صحة اللغة القرآنية من حيث مراعاتها قواعد النحو والصرف من خلال نقد الشبهات وبيان ضعفها تهاافتها، وذلك عن طريق تحليل تلك الشبهات والرجوع إلى أقوال المفسرين والنحاة المتعلقة بالمسائل الواردة بالدراسة. وسيتناول البحث بعض التوهيمات والشبهات التي أوردها المستشرقون على القرآن الكريم وادعاءاتهم وجود أخطاء لغوية في القرآن الكريم وذلك من خلال المبحثين التاليين:

- **المبحث الأول:** شبهة مخالفة القواعد النحوية.
- **المبحث الثاني:** شبهة مخالفة القرآن الكريم للقواعد الصرفية.

المبحث الأول: شبهة مخالفة القواعد النحوية

أورد المستشرقون العديد من النماذج التي يظنون بها الخطأ أو أنهم يدركون صحتها ولكنهم يدلسون على الناس بها، ومن أهم نماذج الشبهات التي وردت في كتب المستشرقين المتعلقة بالأخطاء النحوية الشبهات الآتية:

أولاً: شبهة جمع ما يجب تثنيته المثنى. يقول جولد تسيهر (Goldziher): أنه "حصل الاعتراف بقراءات اقتضتها ضرورة المطابقة بين قواعد النحو الدقيقة وبين صيغ لفظية أو تراكيب جمالية تخالفها، من ذلك مثلاً ما جاء في سورة الحجرات ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: 9]، حيث يعود ضمير جمع المذكر اقتتلوا على مثنى المؤنث (طائفتان) فقد أراد بعض القراء مطابقة قواعد النحو، فقرأ أحدهم - ابن أبي عبله - "اقتتلنا" واكتفى آخر عبید - بن عمير - بقراءة "اقتتلا" وفي أزمنة متأخرة من ذلك اشتد النكير على استعمال التصحيح النحوي".¹¹

ويحاول جولد تسيهر (Goldziher) القول بأن هناك أخطاء نحوية في القرآن الكريم وكان الواجب التصحيح وأورد الآية على أن استخدام الفعل (اقتتلوا) بالجمع على أنه خطأ؛ لأن الآية تشير إلى طائفتين أي إلى مثنى فكان الأولى - من وجهة نظره - أن يقال "اقتتلا بالمثنى أو "اقتتلنا" للمؤنث. الرد على الشبهة: تتعلق الشبهة بمسألتين الأولى تتعلق بالفعل (اقتتلوا) تتمثل في استخدام صيغة المذكر في الفعل والشبهة الثانية تتعلق باستخدام صيغة الجمع في الحديث عن طائفتين:

1. استخدام صيغة المذكر: تتعلق المسألة الأولى في الشبهة بالإخبار عن المؤنث (طائفة)

بصيغة المذكر (اقتتلوا)، حيث أشار جولد تسيهر إلى أن هذا يعد خطأ لغوي في القرآن الكريم، وهو ما يدل على أنه أبعد ما يكون عن فهم العربية التي هي لغة فطرة وفهم عميق للعلاقة بين اللفظ ودلالته.

¹¹ اجنتس جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ط، 1955م)، ص66-ص67.

فالأصل في العربية هو التذكير، أما التأنيث هو الفرع، ولا يلزم التأنيث في مواضع يذكرها الأشموني في شرحه على الألفية فيقول في تاء التأنيث "إنما تلزم هذه التاء من الأفعال (فعل) فاعل (مضمر متصل) سواء عاد على مؤنث حقيقي: كهند قامت والهندان قامت، أم مجازي كالشمس طلعت والعينان نظرتا (أو) فعل فاعل ظاهر متصل مفهم ذات جر أي فرج، وهو المؤنث الحقيقي: كقامت هند، وقامت الهندان، وقامت الهندات، فيمتنع: هود قام والهندان قاما والشمس طلعت والعينان نظرا، وقام هند وقام الهندان وقام الهندات، وقد أفهم أن التاء لا تلزم في غير هذين الموضعين؛ فلا تلزم في المضمر المنفصل نحو: هندما ما قام إلا هي، وما قام إلا أنت، ولا في الظاهر المجازي التأنيث نحو طلعت الشمس، ولا في الجمع غير ما ذكر، تنبيهان: الأول يضعف إثبات التاء مع المضمر المنفصل، والثاني تساوي هذه التاء في الزوم وعدمه تاء مضارع الغائبة والغائبتين"¹².

يستفاد من ذلك أن تأنيث الفعل لا تلزم في حالة الضمير المنفصل، وبالنظر للآية يتضح أن في التذكير حيث فصلت بين (فتتان) والفعل (اقتتلوا) بشبه الجملة (من المسلمين) أي أن التأنيث هنا لا يلزم.

وكذلك يؤكد المبرد عن الإخبار عن المؤنث أنه "ما كان مؤنثا في نفسه يحق التأنيث الذي لا يكون إلا في الحيوان، فكل اسم يقع عليه فحقه ألا يخبر عنه إلا كما يخبر عما يؤكد التأنيث لفظا ومعنى، والمذكر مما ذكرنا لا يخبر عنه إلا كما يخبر عما تذكيره لفظ ومعنى، لأن الخبر عن المسمى، وليس عن الاسم، تقول (قال الخليفة كذا) و (قال الراوية) و (جاء النسابة) ؛ لأنك تخبر عن الذات ولست تريد أن الاسم الذي جاء وتقول (قالت جعفر ، وجاءت قاسم) إذا كان ذلك اسماً لمؤنثة الذات، وإنما صلح أن تقول (طاب البلدة) و(جاءنا موعظة) و ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود

¹² نور الدين علي بن محمد بن عيسى، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: حسن حمد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998م)، ج1، ص396-397.

: [67]، لأنه ليس تحت ذا معنى له حقيقة تأنيث، وكل ما كان مؤنثاً من غير الحيوان إنما تأنيثه للفظه، ولك أن تذكره على معناه¹³.

معنى ما تقدم أنه في الكلام عن المؤنث المجازي فإنه يجوز الإخبار عنه بصيغ المذكر لأن الإخبار عن الذات وليس عن اللفظ، وهو ما يسري على اللفظ المذكر إذا كان يشير إلى مؤنث مثل الإخبار عن فتاة اسمها جعفر فنقول جاءت وذهبت وجلست.

وبالنسبة للمؤنث المجازي فالذات في الألفاظ المجازية ليست مؤنثة وليست مذكورة فيخبر عنها بصيغ المذكر، وذلك لأن التذكير هو الأصل والتأنيث هو التابع، فكل من (البلدة) و (الموعظة) و (الصيحة) مؤنث مجازي، ولذلك يجوز الإخبار عنه بصيغة المذكر (طاب، جاء، أخذ).

وبالرجوع إلى الآية، فإن كلمة طائفة مؤنث مجازي، وفي الحقيقة فإنها تشير إلى مذكر فإن فعل الاقتتال يقع من الرجال، فالآية هنا تعني مجموعة من الرجال تقتات مجموعة من الرجال، ويترتب على ذلك أن الأولى استخدام صيغة المذكر، لأن الإخبار عن الذات وليست عن اللفظ، ولذلك جاءت (اقتتلوا) بصيغة المذكر.

2. الجمع: النقطة الثانية التي أثارها الشبهة هي استخدام الجمع في الإشارة إلى مثنى (طائفتان)، فقال تعالى (اقتتلوا) بدلا من (اقتتلتا)، وقد وضّح المفسرون سبب الجمع في قوله تعالى: (اقتتلوا) فيقول الزمخشري: "والقياس اقتتلتا، كما قرأ ابن أبي عبيدة "اقتتلا" كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو نفرين؟ قلت: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس"¹⁴.

¹³ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، المذكر والمؤنث، تحقيق: رمضان عبد التواب؛ وصلاح الدين الهادي، (القاهرة: مطبعة دار الكتب، د.ط، 1970م)، ص107.

¹⁴ جابر الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط1، 1418هـ/1998م)، ج5، ص571.

وكذلك ذكر أبو حيان الأندلسي هذا الاختلاف في القراءات فقال: "قرأ الجمهور (اقتتلوا) جمعاً حملاً على المعنى، لأن الطائفتين في معنى القوم والناس، وقرأ ابن أبي عتبة (اقتتلتا) على لفظ التثنية، وزيد بن علي، وعبيد بن عمير (اقتتلتا) على التثنية مراعى بالطائفتين، الفريقان اقتتلوا"¹⁵.

ومعنى قولهما حملاً على المعنى أي أن المعنى هو أن القتال بين الطائفتين يعني القتال بين جماعة ضد جماعة، ولذلك عبر عنهم بضمير الجمع.

ويقول الفخر الرازي أن الله تعالى قال: "(اقتتلوا) ولم يقل اقتتلا، وقال (فأصلحوا بينهما) ولم يقل بينهما، ذلك لأن عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة، وكل أحد برأسه فيكون فاعلاً فعلاً، فقال (اقتتلوا) وعند العود إلى الصلح تتفق كلمة كل طائفة، وإلا لم يكن يتحقق الصلح، فقال (بينهما) لكون الطائفتين حينئذ كنفسين"¹⁶.

وبالنظر إلى كلمة طائفة فقد وردت في سورة النساء في قوله تعالى ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102]. ويظهر أن الآية تتكلم عن طائفة واحدة ومع ذلك فقد جمعت (فليصلوا) لنفس السبب وهي أنها تتكلم عن جماعة، فالخطاب عن جماعة، وتلك هي روح العربية وفهم العربي للغة، الخطاب يتحدث عن جماعة وإن كان يجمعهم لفظ مؤنث، فيؤنث الفعل إذا سبق الاسم الظاهر بينما يجمع عندما يكون الفاعل مضمراً.

فالفتنة هي لفظ مفرد يشمل جمع، والفعل وقع منهم جميعاً، ووقع من كل واحد فيهم على حدة فهي كما قال العلماء فالآية مخاطب جماعتين ولذلك خاطبتهم بضمير الجماعة، مما يعني أن القول

¹⁵ محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ط، 1993م)، ج 8، ص 111.

¹⁶ محمد الرازي فخر الدين ابن ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي "مفاتيح الغيب"، (دمشق: دار الفكر، د. ط، 1981م)، ج 28، ص 127.

بتلك الشبهة ناتج عن أحد أمرين، إما أن يكون مجرد تلبيس على الناس حتى يختلط على الناس دينهم، أو يكون ناتج عن جهل وعدم فهم اللغة العربية التي تعتمد على الفهم للمعنى أكثر من اعتمادها على الارتباط الشكلي بين الألفاظ، فالمعنى في الآية يشير إلى جماعة، وإن استخدم لفظ المثني. والخلاصة أن خطاب الله عز وجل للفتن في حالة الاقتتال ليس به أي خطأ، فقتال فئة لفئة وليس بين فرد وفرد، حيث يتقاتل جماعة مع جماعة، وهو يتوافق مع أقوال اللغويين فضلا عن أقوال المفسرين.

ثانياً: شبهة الفصل بين المضاف والمضاف إليه. عندما يتعلق الأمر ببلاغة الجملة فإن أهل اللغة هم أكثر من يستطيع تذوقها وفهمها وبيان بلاغتها، فإن شذ أحد المفسرين ورأى البلاغة في صياغة معينة خالفه فيه باقي المفسرين فلا يعول على قوله خصوصاً إذا كان من يعارضونه أقوى منه في اللغة. يقول جولد تسيهر (Goldziher): "ولم يسلم أيضاً الزمخشري الدقيق التفكير من التخطئة اللاذعة من ذلك الجانب نفسه، بسبب مثل هذه الافتراضات اللغوية، ففي سورة الأنعام ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: 137]، وهي آية وردت في تركيبها الجملي قراءات كثيرة منها أيضاً قراءة لابن عامر (زَيْنَ . . . قتل أولادهم شركائهم) على الفصل بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول، ولكن هذا التشيت في التركيب لم يوافق الذوق النحوي الدقيق عند الزمخشري، الذي التزمنا الإمام بنشاطه في نطاق تفسير القرآن في فصل متأخر من هذا الكتاب، وذلك حيث يقول "والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟" وقد نقب الزمخشري أيضاً في باعث من جهة الرسم الكتابي اقتضى في نظره قراءة ابن عامر التي لا يعول عليها، وعلى هذا الموقف أرسل الناقد السني: ابن المنير قاضي الإسكندرية المالكي صرخته المدوية بعد ذلك بقرن من الزمان إذ وجد في رأي الزمخشري زيباً صريحاً: "ولم يعلم الزمخشري . . . ضرورة أن النبي قرأها على جبريل كما أنزلها عليه، ثم تلاها النبي على عدد التواتر من الأئمة، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرؤون بها خلفاً عن

سلف إلى ابن عامر، فقرأها أيضاً كما سمعها، فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح ما نقط بالضاد؛ فإذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشري ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر. . . وأما الزمخشري فظن أنها تثبت بالرأي غير موقوفة على النقل، وهذا ما لم يقل به أحد من المسلمين، وما حمّله على هذا الخيال إلا التغالي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية، فظنها قطعية حتى يرد ما يخالفها، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد اللغة العربية، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة¹⁷.

يعتمد جولد تسيهر (Goldziher) على قول الزمخشري "وأما قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء، والفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً، كما سمج ورد: زج القلوص أبي مزاده¹⁸

فكيف به في الكلام المنشور، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته، والذي حمّله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركائهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب¹⁹.

أي أن الزمخشري يرفض قراءة ابن عامر للآية لأنه فصل بين المضاف (قتل) والمضاف إليه (شركائهم)، فيرى الزمخشري أن هذا الأمر إذا ورد في الشعر وهو الذي يقتضي في كثير من الأحيان مخالفة القواعد لضبط الوزن والقافية، فإنه غير مقبول في النثر ناهيك عن القرآن الكريم المعجز في

¹⁷ جولد تسيهر، المصدر نفسه، ص 67-68.

¹⁸ البيت ليس له نسبة، والتقدير زج أبي مزاده القلوص، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالقلوص، وهو مفعول وليس بظرف ولا حتى خفض، انظر: كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، تحقيق: جودة مبروك محمد مبروك، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط 1، 2002م)، ص 347.

¹⁹ الزمخشري، المصدر نفسه، ج 2، ص 401.

فصاحته وبلاغته. ولهذا يستند جولد تسيهر (Goldziher) إلى هذا القول للزمخشري على أنه لا يوافق الذوق العام، بمعنى أن به ركافة أو أنه سمجاً مردوداً كما يصفه الزمخشري.

الرد على الشبهة: وللد على هذه الشبهة فإن المفسرين أكدوا على أنه ليس هناك ما يعارض فصاحة الكلام كما أشار إلى ذلك ابن عاشور بقوله: "هذه القراءة ليس فيها ما يناكد فصاحة الكلام، لأن الإعراب يبيّن معاني الكلمات ومواقعها، وإعرابها مختلف من رفع ونصب وجر بحيث لا لبس فيه، وكلما ظهر إعرابها عليها، فلا يعد ترتيب كلماتها على هذا الوصف من التعقيد المخل بالفصاحة، مثل التعقيد في قول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا²⁰ أبو أمه حي أبوه يقاربه²¹

لأنه ضم إلى خلل ترتيب الكلام أنه خلل في أركان الجملة، وما حفّ به من تعدد الضمائر المتشابهة، وليس في الآية مما يخالف متعارف الاستعمال إلا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، والخطب فيه سهل: لأن المفعول ليس أجنباً عن المضاف والمضاف إليه، وجاء الزمخشري في ذلك بالتهويل والضجيج والعويل، كيف يفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وزاد طنبور الإنكار نعمة، فقال: "والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف: (شركائهم) مكتوباً بالياء، وهذا جري على عادة الزمخشري في توهين القراءات المتواترة، إذا خالفت ما دُون عليه علم النحو، لتوهمه أن القراءات اختيارات وأقيسة من القراء، وإنما هي روايات صحيحة متواترة وفي الإعراب دلالة على المقصود

²⁰ مستثنى تقدم على المستثنى منه والمستثنى إذا تقدم على المستثنى منه وكان الكلام منفي فإنه يجوز النصب على الاستثناء أو إعرابه إعراب المستثنى منه وهو غير المختار وقد تقدم في البيت المستثنى (مملكا) على المستثنى منه وهو (حي) فالأولى نصبه، انظر: إبراهيم بن موسى الشاطبي، المقاصد الشافية شرح الخلاصة الوافية، تحقيق: عياد بن عبد التيتي، (مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، د. ط، 2007م)، ص 367 - 368.

²¹ البيت للفرزدق، قال عبد القادر البغدادي الفرزدق مشغوف في شعره بالإعراب المشكل الموحج إلى التقديرات العسرة بالتقديم والتأخير المخل بالمعنى، انظر: عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط4، 1418هـ/1997م)، ج5، ص146.

لا تناكد الفصاحة، ومدونات النحو ما قصد بها إلا ضبط قواعد العربية الغالبة ليجري عليها الناشئون في اللغة العربية، وليست حاصرة لاستعمال فصحاء العرب، والقراء حجة على النحاة دون العكس²². يتضح مما سبق أن ما ساقه الزمخشري من نقد لقراءة ابن عامر مردود لعدة أسباب، فلا يوجد أي خلل في قراءة ابن عامر، فالقراءة فصيحة وذلك لأن معاني الكلمات واضحة يعبر عنها إعرابها، وما دامت الفصاحة تعني وضوح المعنى للمستمع، وحيث إن المعنى واضح، فلا توجد أي سماجة. وبالنسبة لمسألة الفصل بين المضاف والمضاف إليه فإن هذا الفصل لا يؤدي إلى إبهام في المعنى، هذا على خلاف ما قد يظهر في الشعر أو النثر من اضطراب وغموض في المعنى نتيجة للفصل بين المضاف والمضاف إليه، أما قراءة ابن عامر فالمعنى واضح لا لبس فيه. والنقطة الأخيرة التي يجب التنبيه عليها هنا، إلى أن جولد تسيهر (Goldziher) أخذ قول الزمخشري وجعله يمثل الذوق العام أي الفصاحة، وهو قول لا يمكن الإقرار به، فلا أحد ينكر أن الزمخشري من الأسماء التي يرجع إليها خصوصاً فيما يتعلق باللغة، ولكن لا يمكن اعتباره أنه يمثل الذوق العام، خصوصاً أنه يتكلم عن قارئ يفوقه فصاحة وعلماً باللغة العربية. وقول الزمخشري أن ابن عامر اختلط عليه الأمر عندما رأى أن بعض المصاحف كتبت (شركائهم) فيه تقليل كبير من مكانة ابن عامر بأنه اختار القراءة لأنه رأى رسم (شركائهم) في المصاحف، وكأن ابن عامر كان يقرأ من المصحف وليس حافظاً ناقلاً فاهماً للعربية، فابن عامر هو القارئ العالم الجليل وقد وصفه ابن الجزري بقوله: "كان عبد الله بن عامر إماماً عالماً ثقة فيما أتاه حافظاً لما رواه متقناً لما وعاه عارفاً فهماً قيماً فيما جاء به صادقاً فيما نقله من أفاضل المسلمين وخيار التابعين وأجلة الراوين لا يتهم في دينه ولا يشك في يقينه ولا يرتاب في أمانته ولا يطعن عليه في روايته صحيح نقله

²² محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (تونس: الدار التونسية للنشر، د. ط، 1984م) ج8، ص102-103.

فصيح قوله عاليًا في قدره مصيبيًا في أمره مشهورًا في علمه مرجوعًا إلى فهمه لم يتعد فيما ذهب إليه الأثر ولم يقل قولًا يخالف فيه الخبر²³.

فعلى أي أساس يعتبر جولد تسيهر (Goldziher) أن الزمخشري هو الوحيد الذي يملك الذوق العام حسب تعبيره؟!، فقراءة ابن عامر مقبولة لدى المسلمين، وقبولها هذا يعني بلا شك أنها توافق الذوق العام. يضاف إلى ذلك أن جولد تسيهر (Goldziher) يحاول الإشارة إلى أن ردود علماء المسلمين على ما قاله الزمخشري تعتمد فقط على قاعدة أن هذا هو الوحي سواء خالف الفصاحة العربية أم لا، فهو يحاول الإشارة إلى أن العلماء المسلمين لا يستندون إلى أي أساس بلاغي لقراءة ابن عامر، وذلك ما قصده من ذكره لكلام ابن المنير، أي أنهم لم يجادلوه في أصل المسألة وإنما هربوا من المواجهة بالاحتماء في أن القرآن الكريم وحي.

وهذا أمر مردود فكثير من المفسرين لم يقتصر ردهم على مجرد تواتر النقل وإنما شمل فصاحة اللغة أيضًا، فيقول أبو حيان الأندلسي بعد أن تعجب من قول الزمخشري وغيره على قراءة ابن عامر المتلقي القرآن من عثمان ابن عفان ~ قبل أن تظهر العجمة في لسان العرب فيقول أبو حيان: "وإذا كانوا - أي العرب - قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجملة في قول بعض العرب "هو غلام إن شاء الله أخيك"، فالفصل بالمفرد أسهل، وقد جاء الفصل في اسم الفاعل في الاختيار، قرأ بعض السلف ﴿مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: 47]، بنصب وعده وخفض رسله، وقد استعمل أبو الطيب الفصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول اتباعًا لما ورد عن العرب فقال:

حملت إليه من لساني حديقة سقاها الحيا سقي الرياض السحائب²⁴

²³ ابن الجزري، غابة النهاية في طبقات القراء، المصدر نفسه، ص381.

²⁴ البيت للمتنبي والمعنى أنه جعل العقل ساقيا للحديقة لأن المعاني التي فيها إنما تحسن بالعقل فجعل العقل ساقيا كما تسقي السحائب، وقوله سقي الرياض السحائب: أراد سقي السحائب الرياض، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهو من شواذ الاستعمال، وقد جاء كثيرًا في الشعر، انظر: عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ/1986م)، ص286.

وقال أبو الفتح: إذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال العربي وما جاء به، فإن كان فصيحاً وكان ما أورده يقبله القياس فالأولى أن يحسن الظن به، لأنه يمكن أن يكون ذلك وقع إليه لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها²⁵.

فالفصل بين المضاف والمضاف إليه مستساعاً في كلام العرب ولا يوجد ما يعيبه خصوصاً إذا وجدت فائدة بلاغية من هذا الفصل، يقول الفخر الرازي: "والسبب في تقديم المفعول هو أنهم يقدمون الأهم، والذي هم بشأنه أعنى، وموضع التعجب هنا إقدامهم على قتل أولادهم، فلهذا السبب حصل هذا التقدير"²⁶.

وقد يقال في ذلك الكثير من النواحي البلاغية، ولكن الذي يعيننا هنا هو أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه خصوصاً في هذه الآية ليس مردوداً ولا سمجاً كما قال الزمخشري، وأكثر ما قيل فيه هو النظر إلى فصاحة قائله، فإن كان القائل معروفاً عنه البلاغة والفصاحة، فإن قوله مقبول، وإن كان غير ذلك رد، ومع أن هذا القول فيه نظر إذ أن العبرة بالنظر في النصوص وليس في قائلها، ومع ذلك فإن القرآن الكريم المشهود له بالفصاحة وهو المعجز الذي أعجز فصحاء العرب عن الإتيان بآية منه فإن الفصل بين المضاف والمضاف إليه هنا يعد فصيحاً، وقد فصل فصحاء العرب وشعراؤهم بين المضاف والمضاف إليه سواء بكلمة مفردة أو بجملة كما سبق إيضاحه، وبالنسبة للنص فإنه مع وضوح معنى الآية فلا مجال للقول بأن هذا الفصل غير فصيح أو مخالف للذوق العام.

وهذا ينطبق على الكثير من الشبهات التي أوردها المستشرقون في هذا المضمار، حيث يأخذون من كلمة لمفسر أو لغوي أو محدث ويننون عليها بنيانا شاهقا في حين أن ويتحيزون لتلك الكلمة سواء كانت مقصودة بمعناها أو غير مقصودة ويتجاهلون الردود التي ردت عليها، أو على الأقل يقللون من

²⁵ أبو حيان، المصدر نفسه، ج 4، ص 232.

²⁶ الفخر الرازي، المصدر نفسه، ج 13، ص 217.

أهميتها، مثلما حدث مع الزمخشري والمبرد، ويرد عليها جميعا بنفس الطريقة والمنهج الذي أوردناه في المثالين السابقين.

المبحث الثاني: شبهة مخالفة القرآن الكريم للقواعد الصرفية.

كما أشار المستشرقون إلى أخطاء متوهمة لقواعد النحو العربي في القرآن الكريم، فقد أشاروا إلى مخالفة قواعد الصرف، وقد اعتمدوا على وجهات نظر فردية قال بها بعض علماء اللغة لبناء الشبهات عليها، ومن جملة ما ذكره في هذا المضمار ما يأتي:

أولاً: التغير من المصدر إلى اسم الفاعل. يقول جولد تسيهر (Goldziher): "لقي مثلاً العالم الشهير المبرد معاملة غير رفيعة حينما صرح على استحياء عن رأي له في تسوية انحراف التركيب، ذلك أنه ورد في الآية (177) من سورة البقرة، وهي موضع من المواضع القرآنية التي ذهبت مثلاً في الخلق الإسلامي وفيها جرى الحديث عن تحويل القبلة ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : 177]، وهذا في الحمل: "ولكن البر من آمن" عدم انسجام بلا ريب يمكن إخضاعه حقاً بواسطة الذكاء العقلي لنير مطالب التركيب النحوي، ولكنه في ذوق المبرد بعيد أن يرد في كلام الله، وقد وجد اللغوي المشهور أيضاً الشجاعة التي جعلته يقول "لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت" ولكن البر بفتح الباء، من أجل ذلك كان عليه أن يتحمل سخط أهل السنة عليه قروناً طويلة بعد وفاته، إذ كانوا يرون في القراءة المتلقاة بالقبول "ليس البر" بكسر الباء تحقيقاً للإعجاز البلاغي في كلام الله"²⁷.

حيث يستشهد جولد تسيهر (Goldziher) بقول المبرد لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت "ولكن البر" بفتح الباء ويعتمد على هذا القول للإيحاء بأن كسر الباء مخالفة لغوية أو حسب تعبيره "عدم انسجام".

²⁷ جولد تسيهر، المصدر نفسه، ص 66 - ص 67.

الرد على الشبهة: إن تلك الشبهة مثال واضح على مدى ضعف المستشرقين في فهم اللغة العربية وكلام العلماء ومثل تلك التعليقات التي تقع منهم، وذلك أن المبرد حين قال ذلك فهو يعبر عن اختياره لمعنى من معاني "البر" في الآية، وهناك الكثير من المعاني التي ذكرت في كتب التفسير، فالمسألة ليست خطأ في حركة (الباء)، فقد ذكر المفسرون بعض المعاني لكلمة البر والتي يتوقف عليها حركة الباء بين الفتح والكسر حسب كل معنى.

فقد اختلف القراء إذا كان كون (البر) مصدر أو اسم فاعل فمن اعتبرها مصدر يكون الصحيح كسر الباء، ومن اعتبرها اسم فاعل - كالمبرد - يكون الصحيح فتح الباء.

وقد ذكر هذا القول للمبرد في العديد من كتب التفاسير فينقله القرطبي "ويجوز أن يكون البر بمعنى البار أو البرّ، والفاعل قد يسمى بمعنى المصدر، كما يقال: رجل عدل، وصوم وفطر، وفي التنزيل ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: 41]، أي غائراً، وهذا اختيار أبي عبيدة، وقال المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت (ولكن البرّ) بفتح الباء"²⁸.

ويقول أبو حيان الأندلسي: "وقال المبرد: لو كنت ممن يقرأ القرآن، (ولكن البرّ) بفتح الباء، وإنما قال ذلك لأنه يكون اسم فاعل تقول بررت أبر فأنا برّ وبار، قيل فبني تارة على فعل نحو كهل وصعب وتارة على فاعل والأولى ادعاء حذف الألف من البر ومثله سر وقر ورب أي: سار، وقار، وبار، وراب، وقال الفراء: من آمن معناه الإيمان لما وقع من موقع المصدر جعل خبراً للأول، كأنه قال ولكن البر الإيمان بالله، والعرب تجعل الاسم خبراً للفعل"²⁹.

يتضح من ذلك أن المبرد فهم البر على أنه اسم فاعل، فقد فهم الآية أن الله يعلم المسلمين أنه لا يكون البارّ منكم حسب الوجهة التي يوجه إليها وجهه، ولكن البارّ منكم من يؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبين.

²⁸ القرطبي، المصدر نفسه، ج3، ص55.

²⁹ أبو حيان، المصدر نفسه، ج2، ص5.

وأعتقد أن المبرد قد اعتمد في هذا الفهم على قوله تعالى ﴿مَنْ آمَنَ﴾ [البقرة : 177]، وبذلك فإن البر تشير إلى المؤمن أي أنه اسم فاعل من الفعل (بر)، فيكون (بار وبر) وبذلك أسس المبرد فهمه للآية.

أما عن قراءة (البر) بكسر الباء فيذكر سيبويه في كلامه عن استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار، قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة : 177]، "وإنما هو: ولكن البر بر من آمن بالله واليوم الآخر"³⁰.

وبهذا المعنى يكون (البر) مصدر وتكون الباء مكسورة، ويكون المعنى أن (البر ليس في تولية الوجه نحو وجهة معينة ولكن البر هو الإيمان بالله والملائكة والكتاب والنبين).

وبالنظر إلى الآية فقد ذكر الله تعالى (البر) مرتين مرة بنفي البر عن فعل ومرة بإثباته لفعل آخر، و(البر) في النفي والإثبات بمعنى واحد، لأن المراد نفيه عن فعل وإثباته لفعل آخر، وهنا يجب أن تفهم الكلمة في الجملتين بنفس المعنى، حيث يجب أن يستقيم معناه مع النفي ومع الإثبات، فإما أن يكون مصدرًا في الجملتين وإما أن يكون اسم فاعل في الجملتين.

ولهذا قال أبو حيان -أن-: "السابق إنما هو كون البر هو تولية الوجه قبل المشرق والمغرب، فالذي يستدرك إنما هو من جنس ما ينفي، ونظير ذلك (ليس الكرم أن تبذل درهمًا ولكن الكرم بذل الآلاف) فلا يناسب (ولكن الكريم من يبذل الآلاف) إلا إن كان قبله ليس الكريم ببذل درهم"³¹.

وبالنظر إلى الجملة الأولى ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة : 177]، ومن الواضح أن (البر) هنا يعني المصدر، فيكون (البر) في الجملة الثانية بنفس المعنى، لأنه

³⁰ أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ط، 1988م)،

ج1، ص212.

³¹ أبو حيان، المصدر نفسه، ج2، ص4.

وفقاً لقول أبي حيان يكون من غير المناسب القول (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البار من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبیین).

وهذا يوضح كيفية فهم العرب للغة واستيعابهم لمعاني كل كلمة ووظيفتها، فحتى قول المبرد "لو كنت ممن يقرأ القرآن لقرأت (ولكن البر) بفتح الباء" لا يعني أن كسر الباء خطأ، فهو يقرر أنه ليس من قراء القرآن الذين يرجع إليهم، وإنما رأى أن الفتح أولى نتيجة لفهمه لمعنى الآية على وجه معين، غير أن جولد تسيهر (Goldziher) وأمثاله من المستشرقين يتعاملون مع اللغة العربية بفهم قاصر عن استيعاب الدور الذي تقوم به الكلمة وعلاقتها بصياغة الجملة والسياق العام للآية.

أما الإشكالية التي أثارها المبرد فهي تعالج بتقدير الكلام كما قال الزمخشري: "تأويل حذف المضاف أي بر من آمن أو يتأول البر بمعنى ذي البر"³².

وهذا يوجب أيضاً النظر إلى المعنى الإجمالي للآية والمراد منها، يقول تعالى ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة : 177].

يقول ابن كثير: "لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله ، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجهه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق إلى المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه"³³.

³² الزمخشري، المصدر نفسه، ج1، ص362.

³³ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، د. ط، 1999م)، ج1، ص485.

يتضح من ذلك أن المراد من الآية إخبار المسلمين أن تولية الوجه ما هو إلا طاعة لله ، أما الجهة نفسها فلا أهمية لها، فنحن نولي وجوهنا في الاتجاه الذي أمرنا الله به لأن الله ، أمرنا بذلك بصرف النظر عن تلك الوجهة أو دلالاتها بالنسبة لنا، فالكلام هنا عن البر وليس البار، أي أن القراءة بالكسر أولى.

وخلاصة ما سبق أن الاعتماد على قول المبرد للقول بأن اختلاف القراءة ناتج عن خطأ في خلط القراء في كلمة (البر) وتحويلها من اسم فاعل إلى مصدر قول غير دقيق، وذلك لأن القراءة بالكسر هي القراءة الأدق والأكثر بلاغة كما اتضح من أقوال العلماء، وذلك لأن الآية استخدمت المصدر في جملة (ليس البر) وبالتالي يجب استخدام المصدر في جملة ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾، أما ما ورد عن المبرد فهو مجرد فهم ناتج عن تركيزه على جملة ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ﴾، وتلك الجملة يمكن تقديرها كما قال العلماء بأنها (لكن البر بر من آمن)، كما يقال أن المصدر موضوع موضع الاسم للمبالغة.

ثانياً: تغيير صيغة الأمر إلى صيغة التفضيل. يقول جولد تسيهر (Goldziher): -أن- "الحيطة دعت قراءة للآية (112) من سورة الأنبياء ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ فلم يرتض أحد ثقات القراء - ويبدو أن تصحيحه لم يجد قبولا- أن يطلب محمد إلى الله أن يحكم بالحق، كأنما في الإمكان أن يحكم بغير ذلك فأراد دفع هذه الشبهة بتحويل الصيغة بوساطة تغيير حركاتها مع الاحتفاظ بمحصولها الصوتي من صيغة الدعاء إلى صيغة التفضيل، وبهذا ينتقل الكلام من الإنشاء إلى الإخبار (ربي أحكم بالحق) أي ربي أعظم حكماً بالحق من كل حاكم، ولن يحيك من ذلك شيء بالنفس"³⁴.

يحاول جولد تسيهر (Goldziher) أن قراءة (أحكم) بصيغة التفضيل هدفت إلى تغيير الطلب إلى صيغة التفضيل لأن صيغة التفضيل هي إقرار أن الله ، لا يحكم إلا بالحق، ومن ثم فهو يقول أن القراء غيروا من النص الأصلي الذي لا يتناسب مع العقيدة الإسلامية في تنزيه الله ، .

³⁴ جولد تسيهر، المصدر نفسه، ص 37.

الرد على الشبهة: كالعادة يستند جولد تسيهر (Goldziher) على قراءة غير مقبولة للقول بأن القراءات ما هي إلا محاولة للتصحيح أخطاء القرآن الكريم، وعندما لاحظ أحد القراء - الذي يصفه بالثقات ولم يذكر اسمه - وجود تلك المشكلة العقدية فقد حاول حلها بتغيير في حركة الكلمة مع الاحتفاظ بمحصولها الصوتي. والرد على تلك الشبهة يتمثل في النقاط التالية: -

1. "ادعاء جولد تسيهر (Goldziher) أن راوي هذه القراءة من ثقات القراء وهو ادعاء باطل وعزم كاذب، فإن راوي هذه القراءة الضحاك ابن مزاحم المتوفي سنة (105هـ) وليس الضحاك من القراء فضلاً عن أن يكون من ثقاتهم، وليست له قراءة معتمدة ذات قواعد ثابتة وأصول مقررة.

2. إن الضحاك هو الذي حول القراءة من صيغة الدعاء إلى صيغة التفضيل من تلقاء نفسه، في حين أن ركيزة كل قراءة النقل الثابت ودعامتها الرواية المسندة وأساسها التلقي الصحيح.

3. فهم جولد تسيهر (Goldziher) أن المراد بالحق في الآية الكريمة هو العدل بمعناه المطابق وهو وضع الشيء في موضعه والبعد عن الجور والظلم، فرتب على فهمه الخاطئ ما رتب، والمراد بالحق في هذه الآية تعجيل العقوبة للكافرين المشركين وإحلال العذاب عليهم، والنقمة بهم في الدنية وعدم إمهالهم بتأخير العذاب عنهم إلى يوم الدين"³⁵.

وقال الزمخشري: "قُرئ (قل) و (قال) على حكاية قول رسول الله ﷺ و (رب احكم) على الاكتفاء بالكسرة و (رب احكم) على الضم و (ربي أحكم) على أفعل التفضيل، وربي احكم : من الإحكام، أمر باستعجال العذاب لقومه فعذبوا ببدر"³⁶.

وبالرجوع إلى تفسير الآية يتضح أنه لا توجد أية إشكالية فيها فالمعنى واضح دعاء الله أن ينزل حكمه، يقول الفخر الرازي "﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ فيه وجوه:

³⁵ عبد الفتاح عبد الغني القاضي، القراءات في نظر المستشرقين والمحدثين، (القاهرة: دار مصر للطباعة، د. ط، د.ت)، ص140.

³⁶ الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص171.

- أحدها أي ربي اقض بيني وبين قومي بالحق أي بالعذاب كأنه قال اقض بيني وبين من كذبي بالعذاب، وقال قتادة أمره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوى وكانوا يقولون ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]، فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر.
- ثانيها افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرتي عليهم³⁷.
فالمعنى واضح لا لبس فيه، ولا يحمل أية شبهة تتعلق بعدل الله ' مثلما قال المستشرقون، فاحكم بالحق تعني الدعاء لله أن ينزل حكمه الحق الفاصل بينه وبين من خالفوه.
وبناءً على ذلك فإن شبهة جولد تسيهر (Goldziher) تسقط من جانبين : الجانب الأول صحة القراءة فالقراءة غير صحيحة وغير مقبولة، أما الجانب الثاني الأساس الذي أقام عليه شبهته وهو أن (احكم) بصيغة الطلب تعني التشكيك في عدالة الله ، وهذا غير صحيح كما اتضح، فلا يوجد ما يدفع المسلمين إلى تغيير صياغة (احكم) من فعل الأمر إلى افعّل التفضيل، ولكنها المبالغات التي يلجأ إليها المستشرقون لإثبات ما لا يمكن إثباته، وهو أن القراء غيروا في القرآن مدفوعين بأسس العقيدة الإسلامية، بحيث يغيرون الألفاظ أو الجمل التي لا تتناسب مع العقيدة والتي لم يلاحظها رسول الله ﷺ، وبالتالي يحاولون إثبات أن القرآن الكريم ليس من عند الله لأنه جاء يخالف أسس العقيدة التي أقرتها وأكدت عليها آيات أخرى.

كلمة أخيرة في الإعجاز البياني في القرآن الكريم. اتضح مما سبق أن الشبهات التي وجهت إلى القرآن الكريم لم يكن لها أي أساس من اللغة وقد كان هذا هو الحال في الكثير من الشبهات التي أوردتها المستشرقون والتي تصدى لسبرها وبيان توهمات العلماء فالقرآن الكريم بإعجازه اللغوي والبياني قد حفل بآلاف الأسرار والحكم التي يقف أمامها المستشرقون حيارى.

³⁷ الفخر الرازي، المصدر نفسه، ج 22، ص 234.

يتكلم عبد القاهر الجرجاني في أن فصاحة اللفظ في معناه وليس في مبناه، فيقول " وهذا فن من الاستدلال لطيف على بطلان أن تكون الفصاحة صفة للفظ من يحد هو لفظ، لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة في اللفظ محسوسة تدرك بالسمع، أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب، فمحال أن تكون صفة اللفظ محسوسة لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغي أني ستوي السامعون للفظ الفصيح في العلم بكونه فصيحاً، وإذا بطل أن تكون محسوسة وجب الحكم ضرورة أنها صفة معقولة، وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة فإننا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس إلا دلالة على معناه، وإذا كان كذلك لزم منه العلم بأن وصفنا اللفظ بالفصاحة وصف له من جهة معناه لا من جهة نفسه وهذا ما لا يبقى لعاقل معه عذر في الشيك والله الموفق للصواب"³⁸.

أي أن فصاحة اللفظ تكمن في معناه، ومقتضى ذلك الكلام أن اللفظ الفصيح هو ما يؤدي المعنى الصحيح المناسب للسياق والهدف منه والوقوف على المعاني كما يذكر الجرجاني فن لطيف يتمثل في فهم المعنى وإدراك قيمته في السياق لا يجيده إلا أهل اللغة وليس كل الناطقين بها، فضلاً عن أن يكونوا أصحاب ألسنة أعجمية تعلموا اللغة عل كبر، ورغم ذلك ينقضون كتاب أعجز فصحاء العرب.

يقول الزمخشري - الذي يستشهد به جولد تسيهر - " ولما أنزل الله تعالى كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السبق، وونت عنها خطا الجياد القرح، وكان الموفق من العلماء الأعلام، أنصار ملة الإسلام، الذابين عن بيضة الحنيفية البيضاء، المبرهنين على ما كان من العرب العرباء، حين تحدوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات ألسنتهم، والفرع إلى المقارعة بأسنة أسلهم، من كانت مطامح نظره ومطارح فكره الجهات التي توصل إلى تبين

³⁸ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان الداية؛ وفايز الداية، (دمشق: دار الفكر، ط1، 2007م)، ص386.

مراسم البلغاء، والعتور على منازم الفصحاء، والمخابرة بين متداولات ألفاظهم، ومتعاورات أقوالهم، والمغايرة بين ما انتقوا منها وانتخلوا، وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا، وما استركوا واستزلوا، وما استفصحو واستجزلوا، والنظر فيما كان الناظر فيه على وجود الإعجاز أوقف، وبأسراره ولطائفه أعرف؛ حتى يكون صدر يقينه أثلج وسهم احتجاجه أفلج، وحتى يقال: هو من علم البيان حظي، وفهمه فيه جاحظي³⁹.

وعلى هذا الأساس يمكن الرد على كل ما ساقه المستشرقون من شبهات، وهو فهم معنى اللفظ أو الجملة في السياق، وبالرغم من أن القرآن الكريم يحوي العديد من أوجه الإعجاز فإن الإعجاز البياني تصدر اهتمام العلماء والباحثين في أوجه الإعجاز.

وبذلك فإن "ارتباط إعجاز القرآن بالجانب اللغوي بمعناه الواسع واعتماده عليه جسد مركز الثقل في كل الدراسات التي قامت خدمة لهذا الهدف، سواء في سورة اجتهدات لغوية بأيدي لغويين مهرة أو بأيدي دارسين متأخرين، عرب وأعاجم، اقتصر دورهم على الجمع والتصنيف منذ أن بدأ الحديث حول هذا الموضوع، وحتى تعطل الفهم أو قصر عن إدراك المعاني العظيمة والجوانب المشعة في هذا الكتاب الفريد، وباستثناء القلة القليلة التي لم تر هذا الرأي بل خالفته فإن جمهرة الباحثين والمفسرين مالت إلى الأخذ بنظرية الإعجاز البلاغي والبياني ولم تضرب صفحا عن بقية وجوه الإعجاز الأخرى، كالإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، والوفاء بالوعد والتناسب في جميع ما تضمنه القرآن ظاهرا أو باطنا من غير اختلاف، وإن كانت مسألة الإعجاز اللغوي هي التي استأثرت بجل الاهتمام سلبا أو إيجابا منذ إطلالة القرن الثالث وحتى مرحلة الركود"⁴⁰.

³⁹ جبار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1419هـ/1998م)، ص15.

⁴⁰ عمر لطفي العالم، المستشرقون والقرآن، (مالطا: مركز دراسات العالم الإسلامي، د. ط، 1411هـ/1991م)، ص 178.

والشبهات حول القرآن الكريم والإسلام لن تتوقف ما دام هناك خصوم للدين يسعون إلى تشكيك أهله في أصوله، ويساعدهم في هذا ضعف اللغة لدى العرب وضعف الاهتمام بها وهو أحد المداخل التي يدخل منها الطاعنون للطعن على الإسلام.

الخلاصة:

إن شبهة وجود أخطاء لغوية في القرآن هي من أعجب ما ألقى من شبهات حول القرآن الكريم، وذلك أن القرآن الكريم نزل في قوم أهل لغة، وقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]، وفي نفس الوقت يؤكد أن القرآن الكريم هو كتاب عربي مبين يقول تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، ويقول تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: 113]. وبعد هذا التحدي وذلك التأكيد على أن القرآن الكريم كتاب عربي مبين يظهر أن هناك أخطاء لغوية تخفى على العرب ولا تخفى على مستشرق تعلم اللغة العربية حديثاً وعلى كبر ويظن أنه وقف على فنونها وتراكيبها ثم يخرج أخطاء من القرآن الكريم الذي أخذت منه قواعد اللغة العربية، بل لم يفكر العرب في وضع القواعد إلا لفهم القرآن الكريم وبيان معانيه. فكان يجب على أي مستشرق يتعامل مع القرآن الكريم أن يدرك تماماً أن القرآن الكريم أفصح كتاب وأن مدخل اللغة العربية ليس المدخل الذي يمكنه أن يطعن على القرآن الكريم فيه، غير أن من يبحث عن الشبهات يلجأ لأي باب ينفذ منه حتى لو كانت ادعاءات واهية يعلم جيداً أن الرد عليها سهل. ويجب ألا ننسى أن المستشرق يخاطب قارئ لا يعرف اللغة العربية، فأغلب الدراسات الاستشراقية تنشر في الغرب، وحتى ما يصل منها إلى الجمهور العربي ينتشر من خلال الملحدون أو غيرهم ممن يثيرون الشبهات حول الإسلام، وهم يخاطبون في الغالب جمهور لا

يعرف شيئاً عن اللغة العربية الفصحى، وكل ما يدركه من الدراسات التي تثير الشبهات حول الجوانب اللغوية للقرآن الكريم أن هناك خطأ في القرآن. ومن ثم ينقسم القارئون لتلك الشبهات إلى فريقين الفريق الأول وهو غير المسلمين الذين ينقلون تلك الشبهات ويروجون لها سواء فهموا مضمون الشبهة أو لم يفهموه، أما الفريق الثاني فهم المسلمين الذي أغلبتهم يجهلون روح اللغة العربية وكنوزها، وكل ما يعرفونه عن اللغة هو القواعد النحوية التي تدرس في المدارس والتي لا تكفي لفهم الكلام الفصيح للغة العربية. ولذلك أن المستشرقين يستغلون بعض العبارات الواردة في المصادر الإسلامية لإثبات وجود خطأ في القرآن الكريم، لأن أغلب القراء لن يستوعبوا تفاصيل الشبهة، وإنما كل ما سيدركونه أن هناك من العلماء من قال بوجود تلك الشبهة والقارئ في الغالب يكتفي بذلك إلا لو كان متخصص في اللغة العربية، وهم نسبة قليلة من القراء. ويؤكد ذلك أن جولد تسيهر في شبهاته يعتمد على أقوال علماء مسلمين، فإن المسلمين هم من أثاروا تلك المسائل وهم من ردوا عليها، ثم يأتي هذا المستشرق ليستند على بعض العبارات والجملة التي قالها أحد العلماء ويؤسس عليها حكماً على القرآن الكريم مثل أقوال المبرد أو الزمخشري، وقد يكون القائل لا يقصد أبداً ما ذهب إليه جولد تسيهر من وجود أخطاء لغوية في القرآن الكريم، وإنما أبدى ملاحظة عابرة مثل قول المبرد. ولا يمكن لمثل جولد تسيهر (Goldziher) إدراك الفرق بين القارئ وبين عالم اللغة، فالقارئ لا يلتفت أساساً إلى قواعد النحو أو غيرها، وإنما يأخذ القراءة بالإسناد أما عالم اللغة فيتعامل مع كل جملة حسب فهمه غير أنه يجب التأكيد على عدم وجود أخطاء لغوية في القرآن الكريم كما اتضح من خلال البحث.

ويمكننا الخلوص إلى النتائج الآتية:

1. أثار المستشرق جولد تسيهر شبهة خطأ في قوله تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: 9]، حيث كان يجب تثنية اقتتلوا وقد رد على ذلك بأن الجمع هنا للمعنى لأن الطائفة هي جماعة من الناس.

2. أثار جولد تسيهر شبهة الفصل بين المضاف والمضاف إليه في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ [الأنعام: 137]، وقد تبين أن الفصل ليس خطأ وأنه لم يخالف قواعد النحو ولم يضر بالمعنى.
3. ادعى المستشرق جولد تسيهر وجود خطأ في قواعد الصرف في قوله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177]، حيث اعتمد على قول المبرد أن الأفضل قول (البر) بفتح الباء، وقد تبين أن الضم أفضل استناداً إلى سياق الآية.
4. ادعى جولد تسيهر أن القراء اضطروا لتغيير لفظ (احكم) في قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: 112]، من فعل الأمر إلى أفعل التفضيل لأنهم وجدوا أن فعل الأمر لا يليق بجلال الله، وهذا غير صحيح كما هو ثابت أن القراءة الصحيحة المعتمدة فعل الأمر والغرض منه الدعاء.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر والمراجع الورقية

ابن الجزري، محمد بن محمد بن محمد. (1427هـ/2006م). غاية النهاية في طبقات القراء. (ط1). بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984م). تفسير التحرير والتنوير. (د.ط.). تونس: الدار التونسية.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1420هـ/1999م). تفسير القرآن العظيم. (ط2). سامي بن محمد السلامة (تحقيق). الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع.

أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي. (1993م). تفسير البحر المحیط. (د.ط.). عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (تحقيق). بيروت: دار الكتب العلمية.
الأشموني، نور الدين علي بن محمد بن عيسى. (1998م). شرح الأشموني على ألفية ابن مالك. (ط1). حسن حمد (تحقيق). بيروت: دار الكتب العلمية.

الأنباري، كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد. (2002م). الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين. (ط1). جودة مبروك محمد مبروك (تحقيق). القاهرة: مكتبة الخانجي.

البرقوق، عبد الرحمن. (1407هـ/1986م). شرح ديوان المتنبي. (د.ط.). بيروت: دار الكتاب العربي.

البستاني، بطرس. (2014م). أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. (ط1). القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

البغداد، عبد القادر بن عمر. (1418هـ/1997م). خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. (ط4). عبد السلام محمد هارون (تحقيق). القاهرة: مكتبة الخانجي.

الجرجاني، عبد القاهر (2007م). دلائل الإعجاز. (ط1). محمد رضوان الداية؛ وفايز الداية (تحقيق). دمشق: دار الفكر.

جولد تسيهر، اجنتس. (1955م). مذاهب التفسير الإسلامي. (د.ط.). عبدالحليم النجار (ترجمة). القاهرة: مكتبة الخانجي.

ديورانت، ول وايريل. (د.ت.). قصة الحضارة. (د.ط.). بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع.

الرازي، محمد فخر الدين ابن ضياء الدين عمر. (1981م). تفسير الفخر الرازي " مفاتيح الغيب ". (د.ط.). دمشق: دار الفكر.

زكريا، أحمد بن فارس. (1997م). الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها. بيروت: دار الكتب العلمية.

الزمنخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. (1418هـ/1998م). الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. (ط1). عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض (تحقيق). الرياض: مكتبة العبيكان.

الزمنخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. (1419هـ/1998م). أساس البلاغة. (ط1). محمد باسل عيون السود (تحقيق). بيروت: دار الكتب العلمية.

سيبويه، أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. (1988م). الكتاب. (د.ط.). عبد السلام محمد هارون (تحقيق). القاهرة: مكتبة الخانجي.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (2007م). المقاصد الشافية شرح الخلاصة الوافية. (د.ط.). عياد بن عبد الثبتي (تحقيق). مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي.

العالم، عمر لطفي (1411هـ/1991م). المستشرقون والقرآن. (د.ط.). مالطا: مركز دراسات العالم الإسلامي.

القاضي، عبد الفتاح عبد الغني. (د.ت.). القراءات في نظر المستشرقين والملحددين. (د.ط.). القاهرة: دار مصر للطباعة.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. (1427هـ/2006م). تفسير القرطبي " الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان". (ط1). عبد الله بن عبد المحسن التركي؛ ومحمد رضوان عرقسوسي (تحقيق). بيروت: مؤسسة الرسالة.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. (1970م). المذكر والمؤنث. (د.ط.). رمضان عبد التواب؛ وصلاح الدين الهادي (تحقيق). القاهرة: مطبعة دار الكتب.

ثالثًا: الرسائل الجامعية:

أبو صقر، إسلام حسني محمد. (2013). اختيارات مكّي بن أبي طالب القيسي في كتابه الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها دراسة لغوية تحليلية. رسالة ماجستير غير منشورة. غزة: كلية الآداب، الجامعة الإسلامية.

رابعاً: الدوريات:

الدليمي، خميس سبع، موقف المستشرقين في القراءات القرآنية. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإسلامية. تصدر عن جامعة كركوك. العدد 2. 2010م.

شكري، أحمد خالد. أسباب وجود القراءات الشاذة. الملتقى الدولي الثاني حول القراءات القرآنية والإعجاز. تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الكاكلي. 2010.

عباس، فضل حسن. أثر اللغة العربية في تذوق معاني القرآن الكريم وفهمه، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية. تصدر عن جامعة آل البيت. العدد 1. 2005م.

محمود، أنيس عبد الله. (2020) وجوه الإعراب في توجيه القراءات العشر القرآنية " سورة آل عمران نموذجاً" بغداد: مجلة الجامعة العراقية. تصدر عن مركز البحوث والدراسات الإسلامية، الجامعة العراقية. العدد 47. 2020م.